الله . والإنسان . والحياة

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

— ١ —

جدّدوا الإيمان بالله رب الوجود واهب الحياة كما وصفه القرآن القديم ، وحدّثنا عن أعمال يده العلم الحديث ! فرّوا من طنين الشكوك والفلسفات الحائرة حول « الموجود الأول » الذي صدرت عنه جميع الموجودات وأنشئت بتدبيره واختراعه ، ونسقت بفنه وابتداعه ، ودامت بحفظه ورعايته !

واعلموا أن مفتاح الشر وباب الضّياع هو الشك في تلك الحقيقة الأولية العظمى ، والانفلات من قيودها وهي قيود أمانات الحياة كلها !

ابدءوا حياتكم الفكرية بالحديث النفسي والقلبي عن تلك الحقيقة لتتعرفوا إلى جلالها وجمالها ، ولتطردوا عن أذهانكم وسوسة الشر وشوشرة الباطل .

إبنوا أساس حياتكم على صخرة تلك الحقيقة الراسية ، وقاعدتها العريضة الواسعة ؛ لتطمئنوا على أن وجودكم مستند إلى وجودٍ أعظم ! وليس وهما طائراً في أجواء هذه القوى العمياء التي يزخر بها الكون المادي .

اضربوا في رحاب الحياة ومتاهاتها ثم عودوا إلى مكانكم الأول في أحضان تلك الحقيقة مهتدين بالنور الذي يشع من هيكلها بالعُرَى الوثقى التي تمتد منها في كل اتجاه إلى الغرقى والضائعين والشاردين !

املأوا وجودكم بهذه الحقيقة واجعلوها تستبد بخواطركم ؛ فستكونون سعداء بهذا الاستبداد ، لأنه استبداد أساس البناء بالبناء كله إن يُحدّث نفسه بالبعد عن دعامته الأولى ؛ فينهار ويذهب هباء تذروه الرياح

إنها حقيقة تبعث ذلك الشعور الصادق العجيب بالانسجام مع الكون كله ، وحسبكم به من سعادة ! وبالاستناد إلى دعائم الكون كله ، وحسبكم به من حماية ! وبالوصاية على أماناته كلها وحسبكم بها سيادة ! وبارتفاع العقل والقلب إلى مستوى رفيع يعلو بنظراتهما ويَرْحُبُ بخطراتهما ويَعْمقُ بأسرارها ؛ وحسبكم بها كرامة !

وعلى الباحثين عن مصادر السعادة الفردية والجمعية وعن المسرات الأصيلة في الحياة أن يفتحوا عيونهم وعيون الناشئين في الجيل الجديد على هذه الحقيقة دائماً ويمسكوا بمرى أسبابها ،

إلا أنّ واحداً من المؤمنين حسب لا تخدعه صحوة الموت في أمر رسول الله ! ذلك هو ابن عباس الذي يقول لعلي وقد فرح بشفاء محمد : « والله لأرى رسول الله (ص) سوف يُتوفى من وجعه هذا . إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت »[1]

وعاد رسول الله إلى بيت عائشة فاضطجع بين سحرها ونحرها ... « ودخل عبد الرحمن بن أم رومان ، أخي ، وفي يده سواك رطب ، وكان رسول الله (ص) مولعا بالسواك ، فرأيته يُشخص بصره إليه ، فقلت يا عبد الرحمن اقضم السواك

(١) رواية البخاري

فناولنيه فقضمته ثم أدخلته في فم رسول الله فجمع بين ريقي وريقه »[1]

وأخذت عائشة تعوذه بعد ذلك بدعاء كان من عادتها أن تعوذه به إذا مرض . لكن رسول الله رفع رأسه إلى السماء وقال :

« في الرفيق الأعلى ... في الرفيق الأعلى ... »

* * *

يا رفاق الأحباء الأعزاء الأوفياء ، القلم والقلب والدموع ! أين نحن الآن من هذا الرفيق ؟ أين نحن الآن من رسول الله ومما ترك لنا رسول الله !

دمنهور

(١) رواية ابن سعد

ويعرفوها معرفة الرأى فى عقولهم والدم فى قلوبهم

وعبث لا طائل وراءه ، بل عناء ضائع ، بل جريمة موبقة أن يتجه مجهود الإصلاح بقلوب الناس إلى قطب غير قطب تلك الحقيقة ، فإنه لا حق ولا طهر ولا عدالة ولا أمانة إلا فى محيطها

فليعرف ذلك الذين يدعون إلى تأسيس حضارة نفسية جديدة ويريدون أن يلائموا بين سياسة الاجتماع الإنسانى والسياسة التى تتجلى فى الطبيعة كلها

وحَسْبُ الإنسانية ما مضى من تجارب الشرود والجحود واللعب بالألفاظ . والانطلاق وراء خداع الفلسفات الشاذة وافتنان أرباب « الترف العقلى » الذين يتشهون كل غريب من الآراء يقدم إليهم على موائد الفكر ، كما يتشهى أرباب الترف المادى كل غريب يقدم إليهم على موائد البطون

— ٢ —

آمنوا بالإنسان الذى تحملونه فى أجسادكم ، وتستوحونه فى أفكاركم ، وتبادلونه ما صح وما فسد من شئونكم !

آمنوا به لتؤمنوا بالكون ورب الكون ... فلن يؤمن بهما من لم يؤمن به ؛ لأن عقله هو المنظار الذى ترون به كونكم وربكم . فإنا أهدرتم قيمة الإنسان أهدرتم عقله ، فلم يبق لكم ما تدركون به وجودكم وربكم !

ولكى تدركوا اللمحات التى تتراءى فى أعماق معنى الإنسانية حاولوا أن تتحرروا وتتجردوا وتخرجوا من نفوسكم ونوعكم وترصدوا الإنسان بعيون غريبة عنه وتروه بنظرات الملأ الأعلى ممن هو فوقه ، والملأ الأدنى مما هن دونه !

فأيقظوه لنفسه ، ونبهوه إلى امتياز وضعه ، وأقرئوه ما يكتبه الآن على صفحة الأرض

واتركوا الجدليات القديمة حول قيمته فقد هدرت شقاشقها حين كان عاجزاً عن شق الطريق أمام فكره

اخرجوا من غبار التاريخ القديم ، وافتحوا عيونكم على العالم كمخلوقين الآن ، تفكيرهم ابن زمانهم هذا ، ومنطقهم من وقائع الحاضر

أنظروا إلى الإنسان فى نصابه الأعلى داعماً ، ولا تنظروا إليه فى حضيضه الأدنى ؛ فإن من طبيعة كل كائن حىٍّ أرضىٍّ أن يكون له جِذْرٌ فى الطين والسُفونات ، أو أصلٌ فى الدم وبعض القاذورات

وإن النطفة التى خلق منها الإنسان أخلاطٌ وأمشاجٌ أخذت من العناصر الحادة والقوى العمياء ، ما يجعله منها على اضطراب وابتلاء ... وإن الفرد يحمل فى مجارى طعامه وفى أحشائه أوضاراً وأقذاراً نجسة تشمئز منها نفس حاملها ، ومع ذلك هو يقنع من نفسه بتقدير الوجه والرأس الذى يحمل الشخصية وقوى الفكر ...

فلا تنظروا داعماً إلى الذين هم فضلات فى جسم الإنسانية ، وتتخذوا منهم « مَقْطع » النظر إليها جميعاً . فيحملكم ذلك على التشاؤم والسخط والشك فى الخير والجمال الذى فيها

هم كالثمار الفجة المعطوبة عَطِبَت وتلوثت ، لأنها سقطت لضعف روابطها بفروع الشجرة التى تسمو

إننا نحمل أقباساً منيرة مطهرة من عالم الحق والطهر والجمال ولكنها وضعت فى أجسامنا : تلك الأوعية الطينية الشريفة التعفن . فمن الناس من يدوم على تطهير وعائه وصقله حتى يستحيل إلى زجاجة شَفيفَة رائعة تساعد ذلك القبس على السطوع والإشراق

ومنهم من يتركه كما هو من غير تطهير وصقل بالعلم والتهذيب فيظل مُعتماً ويَحُول بين ذلك القبس وبين السطوع الكامل ...

ومنهم من يضع فى ذلك الوعاء ما يزيده عتمة وكثافة تَطْغَى على ذلك القبس وتمحق شعاعه وتجعله منبع ظلام

فلأجل النور ! نَبِّهوا كل مصباح إلى رسالته ، وَحُولوا بين الظلام وبين زجاجته ...

ولا تحملنكم حياة الظلام الراهن على أن تتشاءموا وتسخطوا وتحطموا ما بقى لكم من مصابيح ، فتعيشوا فى عمياء نهارها كليلها ...

— ٣ —

وصدِّقوا الحياة وكذبوا المتكلمين الذين يمارضونها ، ويزعمون أنهم أصدق منها ، ويثيرون الناس بسببها وتحقيرها ، ويملأون قلوب فتيانها الناشئين بأحاسيس السخط عليها قبل

أن ينالهم منها ما يبرر ذلك ، ويخلقون لأنفسهم عوالم خيالية منفصلة عن الحياة ومنطقها العملي ، ويقذفون بكلمات جوفاء على كلمات البداهة والطبع فيحجبونها عن أنظار القاصرين الذين ينظرون نظراً سطحياً ، فيذهبون ضحايا الانخداع بزخارف القول الغرور وأوهام الفكر الشرود

والحياة بالغة الحجج مفحمة المنطق جارفة التيار ، تدفع الإنسانية دائماً إلى مجراها الذي يعذب عبابه وتتضرب أمواجه على رغم هؤلاء المتكلمين المتشائمين . فلا سبيل إلى الوقوف في وجهها وتحويلها . وكل من زعم أن منطقه أصدق من منطقها فله ما شاء من زعمه . أما أبناء الحياة الذين سادوا فيها فلا يعرفون إلا وجه أمهم الواضح القسمات المعروف السمات . . .

واعتقادي أن الذي جنى على التدين أن الناس حسبوا منطقة الدين منفصلة عن الإحساس العام بالحياة ، وزعموا الدين لغير الحياة الدنيا ، فجابهوهما بقلب مُوزَّع وفكر حائر بينهما ، وحاول المتعبدون منهم الفرار من الدنيا قبل أن تستوفي ضرائبها منهم ويستوفوا تجاربهم فيها ، وظنوا العبادة فترات انسلاخ من الحياة بالطقوس والرسوم وما إليها من المظاهر التي هي مواقف « استعراض » للمؤمنين لا أكثر . . . مع أن لُبَّ العبادة هو أن تشعر دائماً في نفسك بفيض الحياة : ذلك الشأن الإلهي العجيب ! وأن تتيقظ لفعله في ضربات قلبك وخطرات فكرك ، ونبضات خلاياك وهمسات نفسك ولمحات عينك ... وألا تنسى أنك دائماً تتلقى ذلك الفيض من ينبوعه الأعظم إلى أجلٍ . . . فيحملك ذلك الشعور الملازم على أن تحافظ على وجودك الذي هو مظهر تلك الأسرار ومشكاة تلك الشعلة ، فلا تعطل قوة من قواه ، ولا تطمس رسماً من رسومه ، ولا تقعد به عن الزحام في مجالات العمل الكريم الذي يذكي شعلة الحياة ويلقي إليها حطباً يشبُّ ضرامها ...

والوجود الإنساني الكامل الصحيح هو الذي ينتج الشعور الصحيح والفكر الصحيح والخلق الصحيح والعمل النافع الدائم ؛ وهو الذي أنتج وسائل التغلب والسيادة على عقبات الطبيعة ، والقدرة على تمهيد الأرض للانشاء والتعمير ، وتخفيف المشقات والآلام ؛ وهو الذي حقق تلك « الكرامات » العجيبة الدائمة التي أكرم الله بها الإنسانية على أيدي علمائها الذين جعلوا همهم البحث عن أسرار صنعة الله وقراءة كلماته الظاهرة والباطنة في الآفاق وفي الأنفس ومحاكاة نماذجها .

. وإذا كانت كرامات الأولياء أمراً مؤقتاً خاصاً بهم ، فإن كرامات علماء الطبيعة أمر دائم مشاع للانسانية جميعها . . .

فلنعرف ذلك جيداً ليحملنا على الاعتراف بصدق الحياة والإقبال على الكشف عن أسرارها ، والإيمان بأن جميع أحلام الإنسانية في السيطرة على شئون الأرض ستحقق قبل انقضاء رحلتنا على سطحها

وينبغي ألا نخلط بين شرور الإنسان وبين آلام الحياة التي لا دخل للانسان فيها حين نتحدث عن صدق الحياة . فإن الحياة من يد الله بريئة صحيحة قليلة الشر والألم ، ولكن الذي يضاعف الشر ويمحو بشاشة الحياة هو الإنسان القاصر الجاهل الناشىء في أحضان السفاهات والجرائم والإهدار لقيمته . . . ومن هنا وجب الإيمان بالإنسان وإيقاظه لنفسه أولاً على نحو ما قدمناه في هذا الصدد لكي يحتجب شره وينمو خيره فيظهر وجه الحياة الجميل البريء ، ويظهر وجه الإنسان الكامل المنشود ، ويظهر وجه الله الرحمن ذي الجلال من خلالهما حتى يراه كل فكر جحود وقلب كنود !

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق!)

وتلك نبوة الحياة الصادقة ، يبعثها سر الإنسان الذي نفخ الله فيه من روحه وجعله خليفة في الأرض ليظهر غيوبها ويثير دفائنها ، ويلبس بروحه الحية موادها الميتة فيجعلها تحيا بروحه وتفكر بعقله وتخطو بسرعة فكره !

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ! فسجدوا ...)

ذلك هو حديث الزمان يرسله هامساً في أذن الإنسان خلال صيحات وحوش الحديد والفولاذ الرابضة والسائرة والسابحة والطائرة ، وبين دوي الآراء والمذاهب الهدامة والفلسفات الشاردة الحائرة . وأعتقد أنه نداء يجب أن يكون عنوانا لتجديد الدعوة الدينية في هذا العصر الحائر المنهافت ، وأساساً فكرياً صالحاً لوصل العقول والقلوب بأعماق الكون ولباب الإنسانية وصدق الحياة !

عبد المنعم محمد خلوف